

الفصل الحادي والثمانون

ويوجد في الشرق شعوب أخرى تعيسة، يبغضهم الرب، وهم أخساء يستحقون الأزدراء، ويدعى بعض هؤلاء باسم «اليسينيين*»، وهم انحدروا من أصل يهودي، ويرى بعضهم أن الحياة بعد الموت مسألة إيمانية، ويثقون أنهم سيحرزون الشيء نفسه مرة أخرى، وهم لا يتزوجون خشية من فجور النساء، الذين يرون أنهم لم يكن قط مخلصات لرجل واحد، ويتزوج بعضهم الآخر، لكن لا يتحدثون مع زوجاتهم عندما يكن حوامل، ليظهروا أنهم اتصلوا بهن فقط من أجل الحصول على الذرية، وليس من أجل المتعة، ويقولون لا تتلقي الأرواح بعد الموت لاعتقوبة ولا تمجيد، لكن وهم يسعون ضد هذه الطوائف، بيدد هؤلاء القوم المفتتون جهودهم.

ومن هؤلاء اليسينيين طائفة الحشيشة المتقدمة الذكر، وقد قيل بأنها الطائفة الرئيسة بينهم، وهم يحتفظون بجزء من الأبجدية اليهودية، ويستخدمون مزيجاً من الحروف العبرية والكلدانية.

وآخرون هم الصدوقيين، الذين لا يؤمنون ببعث الموتى، وهم قد تلقوا أسفار موسى، لكنهم لم يفهموها، وقد وبخهم الرب في الانجيل قائلاً: «تصلون إذ لا تعرفون الكتب ولا قوة الرب» (متى: ٢٢/٢٩)، وبعدهما اقتبس سلطانه من أسفار موسى بقوله: «أنا رب إبراهيم، ورب اسحق،

*— اليسينيون: طائفة يهودية نشطت بشكل رئيسي في دير قمران على البحر الميت، وقد زالت هذه الطائفة مع سنة ٧٣م، وتعرف العلماء مجدداً عليها من خلال المخطوطات التي كشفت حديثاً في خرائب وكهوف دير قمران، ومزج المؤلف المعلومات وأخطأ كثيراً، ويرجح أنه أراد طائفة الحشيشية الاساعيلية، وهو لم يفقه عقائد الاساعيلية، واختلط عليه الأمر، وهذه لم تكن المرة الأولى ولن تكون الأخيرة.

ورب يعقوب»، أفحهم وأنهى كلامه على هذه الصورة بقوله: « هو ليس رب الأموات، بل رب الأحياء» وآخرون هم السامرة الذين يعتمدون الأبجدية العبرية مثل اليهود، وقد تقبلوا أسفار موسى الخمسة فقط (البتاتوخ)، ولم يعترفوا بالأنبياء الآخرين أصحاب الأسفار اليهودية المقدسة الأخرى، وعندما اقتاد سلما نصر ملك آشور سبي الأسباط العشرة من بني اسرائيل ونفاهم، بعث بالسامرة المتقدم ذكرهم إلى بلاد السامرة لكي يقوموا بفلاحة الأرض في مكان اليهود، وعندما تلقى السامرة كلمة الرب بوساطة تبشير الرسل، استمر بعضهم بالتمسك بأخطائهم القديمة، ولهذا لعنهم الرب وعاقبهم بالرحم العقيم وبالصدور الجافة، ولعن كذلك تماما هذه الأرض الشريرة والفاصلة، وقضى عليها بالنار الأبدية مع الجفاف والقحط، ولهذا قيل لا يوجد منهم أكثر من ثلاثمائة انسان حي يمكن العثور عليهم في جميع أنحاء العالم، وتقبل آخرون منهم أسفار موسى والأنبياء وجميع العهد القديم، لكن فقط بمعناه الحرفي، وهؤلاء هم الذين قال القديس بولص ضدهم: « لأن الحرف يقتل ولكن الروح يحيي » (كورنث: ٢ / ٣ / ٦)، ويقول الرب في الانجيل: « الروح هو الذي يحيي، أما الجسد فلا يفيد شيئاً » (يوحنا: ٦ / ٦٣)، ولهذا من الواضح أن الكتاب المقدس ليس له فائدة عند اليهود، لابل إنه يؤذيهم كما قال النبي داود: « لتصر مائدتهم قدامهم فخاً وللامنين شركاً. لتظلم عيونهم عن البصر وقلقل متونهم دوماً. صب عليهم سخطك وليدركهم حمو غضبك. لتصر دارهم خراباً وفي خيامهم لا يكن ساكن » (المزامير: ٦٩ / ٢٢ - ٢٥)، وتعني هنا كلمة «مائدة» الكتابات المقدسة، هذا ومازال الجزء الأكبر منهم يسكن منعزلاً في ذلك الجزء من الشرق، حيث يحكى أن الاسكندر ملك مقدونيا قد حجزهم دون جبال قزوين، ومن هناك سوف يجلبون في أيام المسيح الدجال، ويقادون عائدين إلى الأرض المقدسة، وبين جبال قزوين تلك وبحر (قزوين) حبس هذا الاسكندر نفسه قوم يأجوج ومأجوج الذين

لا يمكن تعدادهم لأنهم مثل رمال البحر، لأنه كره عاداتهم البغيضة بأكلهم لحوماً بشرية ولحوماً نيئة لحيوانات نجسة.

وفئة أخرى من اليهود، الذين كان آباؤهم قد صرخوا: «دمه علينا وعلى بنينا» (متى: ٢٧/٢٥) قد تشتتوا في جميع أنحاء العالم، وإلى حيثما هبت الرياح من السماء، « تراهم في كل مكان عبيداً، ودافعين للجزية»، تحولت قواهم إلى رماد حسب كلمات النبي إشعيا، لأنهم أصبحوا في الحقيقة ضعفاء غير محبين للقتال مثل النساء، ولقد قيل بأنهم يبيضون وتتدفق منهم الدماء كل شهر، ولقد ضربهم الرب في الأعضاء الخلفية، وجعلهم في عار دائم، فمنذ أن قتلوا أخاهم هايل جعلوا هائمين ومشردين على وجه الأرض مثل قابيل الملعون، الذي له رأس مرتعش، أي قلب خائف، يمشون أيامهم ولياليهم في رعب، ويعيشون في ظل الشعور بالخوف من الموت، ويكرههم المسلمون الذين يعيشون فيما بينهم ويحتقرونها أكثر من المسيحيين، ولما كان الجشع المقيت للأمرء المسيحيين جعلهم يتساهلون معهم في سبيل الربح الدنيوي، وسمحوا لهم بالاحتفاظ برجال مسيحيين سجناء لديهم، وجعل المسيحيين يعانون من السلب من قبلهم بوساطة الربا الذي يمارسونه والذي لا يطاق، أما بين المسلمين فيعملون بأيديهم بالحرف الأسوأ والأشد قساوة، وهكذا هم أفنان وعبيد للمسلمين ويعانون ليعيشوا معهم في أدنى مرتبة من الحياة، ومع هذا لا يتعرضون للقتل على أيدي المسلمين مثلما يتعرضون على أيدي المسيحيين، لأن الرب يبقئهم للوقت المناسب مثلما يبقئ جرع شجرة من الغابة لكي يحرق في الشتاء، ومثل كرم خبيث حتى النهاية، أي نهاية الدنيا، عندما يتم انقاذ بقايا إسرائيل، لكنه تحول الآن إلى المرارة، وهو يعطي فقط عنباً وحشياً، وهو ربما سيعطي ثماراً ثمينة وعنباً حقيقياً، وهكذا قال النبي داود حولهم: « الرب سوف يريني رغبتني في أعدائي. لا تقتلهم لثلا ينسى شعبي، تيههم وشردهم». الخ (المزامير:

١٠/٥٩ - ١١) لأنهم يذكروننا بموت المسيح، ولقد تلقينا شهادتهم من الكتابات المقدسة حول الأشياء التي صنعها الرب من أجلنا، حسبما يقول دانيال: «يُقطع المسيح، وليس له، وشعب رئيس آت يخرب المدينة والقدس» (دانيال: ٢٦/٩)، ويقول داود: « بنو الغرباء يبلون ويزحفون من حصونهم» (المزامير: ٤٥/١٨)، هذا ولا يوجد أي نبي لم يقدم لنا شهادة ضدهم، وقلب هذا الشعب أعمى إلى حد أنه يلتمس طريقه ويسلب وسط النهار، وكأنه في الظلام، ذلك أن آذانهم صماء، وعيونهم مغلقة، وكذلك لا يفهم هذا الشعب الأحمق والمعاند، ولا يعرف المدى المرعب الذي أغضب فيه الرب ضده بموت المسيح، لابل إنه قد أغضب الرب حتى قبل موت المسيح، بطرق مختلفة، منها عبادة الأصنام، واقتراف لمنكرات أخرى، ولهذا ألقى بهم الرب في أيدي أعدائهم، ليخدموهم أحياناً لمدة عشر سنوات، وأحياناً لمدة عشرين، وأحياناً أخرى لمدة أربعين، وذلك حسبما نجد في سفر القضاة، فقد مكثوا في إحدى المرات في السبي في بابل لمدة سبعين سنة، وأطلق الرب بعد ذلك سراحهم، لكنهم بعد ما قتلوا الرب يسوع، لم نعد نسمع أنهم عبدوا الأصنام، لكنهم وقعوا في السبي لمدة تزيد على ألف سنة، ولم ينالوا بعد عفو الرب ومغفرته. ولكن كما صلى المسيح للرب قائلاً: « أما أنت فارحمي وأقمني فأجازيهم» (المزامير: ١٠/٤١)، وهكذا نال صلاته من الرب الأب، ومثل هذا كان قد تنبأ لهم قبل وقت طويل، قائلاً باسم الرب شخصياً: «الانتقام لي وأنا أجازي» (التثنية: ٣٢/٣٥)، وقال ثانية: «فيصيبكم الشر في آخر الأيام، لأنكم تقترفون الشر أمام الرب حتى تثيروا غيظة بما تجنيه أيديكم» (التثنية: ٢٩/٣١).

وتحدث النبي دانيال عن هذا السبي الأخير بهذه الكلمات: «وشعب رئيس آت يخرب المدينة والقدس، وانتهأؤه بطوفان، وفي نهاية الحرب خراب قضي به. ولسوف يوقف الذبيحة والتقدمة. وفي الهيكل سيكون

هناك رجاسة الخراب، وسيستمر هذا الخراب حتى الاكتمال والنهاية»
(دانيال: ٢٧/٩).

الفصل الثاني والثمانون

ومنذ بداية استرداد الأرض المقدسة وانقاذها، بات مؤكداً بشكل صحيح من قبل الذين عرفوا أوضاعها بشكل دقيق، وعرفوا تبدلات تقدمها وسعدها، ونظروا بعناية نحو ازدهارها وانتكاساتها، أنه ما من جنس من البشر، وما من وباء كان له قوة الأذى عليها أكثر من رجالها: المجرمين والآثمين، والأشرار، وغير التقاة، والمدنسين، واللصوص، والسارقين، وقتلة النفس، وقتله الأباء، وحاشي اليمين، والزناة، والخونة، والقراصنة — أي لصوص البحر — والداعرين، والسكيرين، والمغنين، ولاعبي النرد، والمهرجين، والممثلين، والرهبان المرتدين، والراهبات اللائي مثل المومسات العموميات، والنساء اللائي تخلين عن أزواجهن ليعشن في بيوت الدعارة، أو الرجال الذين هربوا من زوجاتهم الصحيحات واتخذوا أخريات بديلاً عنهن، ولقد عبر مثل هؤلاء الناس الأشرار الذين كانوا في الغرب، البحر المتوسط، واتخذوا ملاذاً لهم في الأرض المقدسة، حيث غيروا المناخ فقط، لكنهم لم يغيروا أخلاقهم، ولقد دنسوها بأعداد لا تحصى من الجرائم، والأفاعيل المخزية، لأنهم لم يخافوا لا الرب، ولم يقيموا أدنى اعتبار للناس، بل أذنبوا دونها خجل، واقترفوا ما اعتادوا عليه من آثام، وكلما ازدادوا وقاحة كلما ابتعدوا عن معارفهم وأقربائهم، كما أن السهولة التي جعلتهم ينجون من العقاب زادت وقاحتهم على اقتراف الإثم، وأطلقوا العنان لفسوقهم، ذلك أنهم بعد اقترافهم لشور عظيمة يقومون إما بنكران المسيح، والالتحاق بالخيران من المسلمين، أو يعتلون ظهر غليون أو سفينة، ويحملون أنفسهم إلى جزر البحر، أو يتخذون ملاذاً في واحد من بيوت الكهنة النظاميين، ومثل هؤلاء الرجال

المهاريين من العدالة تجدهم في كل مكان على طرقاتهم، حيث أن الامتياز المخرب يحمي فاعلي الشر، وهكذا يهربون من تسديد المقتضى عليهم، وينجح بعض الرجال الدمويين وأطفال الموت بعد القبض عليهم في بلادهم وهم متلبسون بجرائمهم، وبعد ما يحكم عليهم بفقدان عضو من الأعضاء أو الشنق، هؤلاء ينجحون عن طريق الوساطة أو الرشوة، حسبما جرت العادة في الحصول على حكم بالنفي المؤبد إلى الأرض المقدسة دونما أمل بالعودة. وصار هؤلاء الناس متجنسين في الأرض المقدسة، ليس عن طريق التوبة بل بالقوة، ولقد اعتادوا على تأجير مساكن الحجاج بأسعار معتدلة، والقيام بخديعة الغرباء الأبرياء بكل طريقة يمكنهم فعلها، ينتزعون المال منهم بالحيلة لأجل الديون التي لا يمكنهم الوفاء بها، وهكذا نجدهم يعيشون حياة بائسة بنهب ضيوفهم وسلبهم، ولقد اعتادوا على إيواء القتلة واللصوص، ولاعبي الميسر، والعامهات العموميات، على أمل الحصول على مرابح أعظم، وهم يدفعون جزية سنوية للرجال الأغنياء والأقوياء حتى يتمكنوا من الحصول على حمايتهم، ودعمهم في آثامهم المتقدمة الذكر، وكل هذا في سبيل الشرور الأعظم واللعنة والخزي لكلا الفتنتين: لأن الذين حصلوا مقابل دفع مبلغ كبير من المال على امتياز الحفاظ على المومسات ولاعبي الميسر، يستخرجون المزيد من الأموال من هؤلاء المومسات والمقامرين، هذا وإن الذين يتسلمون إيجار المومسات، معاندة منهم لأوامر الرب، يتولون بأنفسهم مشاركتهم في جميع ذنوبهم وآثامهم، ذلك أن الشريك في الجريمة يتلقى العقوبة نفسها التي يتلقاها المجرمين، وذهب بعض الناس من ذوي العقول الخفيفة، للقيام بالحج إلى الأماكن المقدسة، ليس بدافع التقوى، بل بدافع الفضول ومحبة الأشياء الجديدة، أي أن يرتحلوا إلى بلاد غير معروفة، ويمكنهم مع جهد كبير أن يبرهنوا على صحة الحكايات الغريبة الاعجازية التي سمعوها عن الشرق، للناس الجاهلين، وفي الحقيقة صنع الرب الكثير من الأعمال الاعجازية المدهشة في هذه

المناطق، التي تجعل العقلاء وذوي التفكير السليم من الناس ينبرون نحو حمد الرب وتمجيده، حتى أن القديس براندان (Brandan) (٤٨٤) — (٥٧٦م) أبحر حول البحار لمدة طويلة (سبع سنوات) حتى يرى عجائب الرب في الأعماق، غير أن ذوي العقول الخفيفة، والرجال ذوي الفضول حولوا إلى حماقات هذه الأشياء التي تفضل الرب وتنازل بالبرهنة بها على قوته وإظهار حمده وشكرانه، ورأينا أنه من المناسب إضافة قليل من هذه الأشياء إلى الكتاب الحالي، لعل ذلك يكون نافعا إلى القراء النبهاء والمتيقظين.

الفصل الثالث والثمانون

غالباً ما تحدث زلازل خطيرة ومرعبة، ليس فقط في مملكة القدس بل أيضاً في البلدان من حولها، خاصة على شواطئ البحار، وذلك بسبب عنف الرياح، التي تتشكل من هياج الأمواج وقوة اندفاعها في الأماكن الكائنة تحت الأرض وفي الكهوف في الأرض، وبما أن الهواء المضغوط والمدفع لا يجد فتحات متيسرة يقوم بهز الأرض بضربات قوية ومقلقلة، وإذا لم تستطع الأرض مقاومة هذا الضغط، تنفجر منفتحة، ويكون هناك خليجاً عظيماً، ولهذا يتم أحياناً ابتلاع بعض المدن ونزولها إلى الهاوية، وعندما لا تنفجر الأرض، تهتز بمثل هذه الضربات العنيفة الناجمة عن الرياح، مما يجعل مدناً تنهار فجأة هي وأسوارها وأبراجها والأبنية الأخرى فيها، وتفاجيء الناس، وتأخذهم على حين غرة، فتغمرهم وتقهرهم، وبناء عليه فإن الناس العقلاء في هذه المناطق، الذين لا يعرفون الساعة التي ستهب فيها العاصفة سألفة الذكر عليهم، يترقبون ذلك بكل يقظة، ولا يهملون إعداد أنفسهم للموت، غير مفترضين القدرة على العيش في وضع لا يتجرأون فيه على الموت، وكان يمثل هذا النوع من الدمار الشامل قد دمرت مدينة صور، بعدما

أصبحت في أيدي اللاتين، فلقد دمرت كلها تقريباً مع جميع سكانها. وفي الوقت الذي يحدث فيه البرق والرعد في الغرب أثناء الصيف، يحدثان في الأرض المقدسة أثناء الشتاء، لأن الأمطار لا تهطل في الصيف فيها، أو نادراً ما يحدث ذلك، لكن غالباً ما تتساقط الأمطار لمدة ثلاثة أيام أو أربعة معاً، وينتج عن هذه الأمطار فيضانات مياه عظيمة، مثل طوفان آخر يغرق الأرض كلها ويوحلها، ونادراً ما تتساقط الثلوج في الأرض المقدسة، باستثناء على قمم الجبال العالية، كما في لبنان، وفي خلال الصيف كله، لاسيما في أوقات الحر الشديد أيام الشعري dog-days ، وفي شهر آب، يجلب الثلج البارد الى القدس، ويحمل إليها خلال رحلة يومين من لبنان، وعندما يمزج هذا الثلج مع الخمرة يجعلها باردة مثل الثلج، ويحفظ هذا الثلج بتغطيته بالقش، حتى لا يذوب بحرارة الشمس أو بدفء الهواء.

الفصل الرابع والثمانون

وجدت الينابيع التي تتدفق بماء عذب في كل من البحر والبر، وواحد من هذه الينابيع في السامرة (نابلس)، قيل بأن مياهه تتبدل الى أربعة ألوان مختلفة في السنة، وهذه الألوان هي: الأخضر، ولون الدم، ولون الصداً أو لون الوحل، واللون النقي تماماً، وهكذا توفر تغييراً مدهشاً ومبهجاً للعيون أن تراه، ولا يرسل نبع سلوان مياهه العذبة كل يوم من القعر دونما انقطاع، بل يرسلها على دفعات، لمدة ثلاثة أيام أو أربعة في الأسبوع، وهناك في قرب جبل لبنان، بين بلدي عرقة ورفنية (بارين، أو بعزين) نهر سريع الجريان وكثير المياه يدعونه نهر السبعين كال sabbatical (أي نهر السبعة أوفوار الدير) لأنه لا يعطي أية ماء خلال ستة أيام من الأسبوع، وتتدفق المياه منه فجأة في اليوم السابع وتجري في مجراه الجاف، ويصنعون في منطقة صور وعكا الزجاج النقي جداً، ببراعة حرفية، ويتم

التصنيع من رمال البحر، أي أن تقول من رمل البحر وحصبائه.

xx

xx

xx

الفصل الثاني والتسعون

وهكذا سلم الرب شعبه تماماً للسيف، وكان حانقاً جداً على ورثته، وهكذا صار أعداؤنا بشكل تام هم الرأس ونحن الذنب، وهكذا أخذوا منا بالقوة ليس فقط أرض الميعاد، بل جل المناطق، والمدن، والقلاع من تخوم مصر حتى الجزيرة، وتركوا لنا من مدن شاطئ البحر مدينتين فقط هما: صور وطرابلس، وذلك بالإضافة إلى أنطاكية، وعدد قليل من الأماكن الحصينة، مثل قلعة تعرف باسم قورس، قرب أنطاكية وحصن (الأكراد) والمرقب، والحصن الأبيض (برج صافيتا) وعرقة، وبرج طرطوس، وقلعة نفين (رأس شكا) في منطقة طرابلس وسقطت جميع المدن والأماكن الحصينة في الداخل في أيديهم الأثمة، وكانت البداية التعيسة بالنسبة لهذه الكارثة، والمحنة المريرة، والبلوى، مع كونتية الرها: لأنه بعد وفاة جوسلين الشجاع والحكيم، الذي كان كونت الرها، قام ابنه جوسلين الثاني الذي انحرف عن طريق والده في المكانة والشرف وأسلم نفسه إلى الفسوق المشين، وأهمل الدفاع عن مدينة الرها، ففقدتها لصالح زنكي صاحب الموصل، التي هي عاصمة ومطرانية إقليم آشور، فقد قام زنكي بحصار المدينة، وشق طريقه بالقوة إلى داخلها من خلال الأسوار واستولى عليها، وبعد هذا أنزل انتقام السماء حكمه على جوسلين المتقدم الذكر، وقد أخذ أسيراً من قبل المسلمين، ومات بشكل تعيس، حيث جاع حتى الموت في السجن في حلب، وبناء عليه قامت زوجته بالتنازل عما بقي لها من مناطق لصالح امبراطور القسطنطينية، مقابل دخل سنوي وأرسل الامبراطور حشداً جباراً من الاغريق، ووعد أنه سوف يدافع عن البلاد ضد المسلمين وفرح نور الدين بن زنكي

المتقدم الذكر ، لدى تراجع اللاتين ، مع أنهم كانوا قلة ، واكثرث قليلاً بحشد الاغريق غير المولع بالحرب ، والذي كان يعرف أنه كان ضعيفاً وجباناً ، وبناء عليه أدخل المنطقة كلها تحت سلطانه ، وقتل بعضاً من رجال جيش الاغريق الغرير وأسر البقية ، وقام نور الدين هذا نفسه أيضاً بحصار قلعة اسمها حارم ، كان تعود بملكيتها الى اماره انطاكية ، وتبعد مسافة عشرة أميال عن مدينة انطاكية ، وقتل في تلك الآونة ريموند أمير انطاكية في معركة ، وكان ابنه بوهموند وخليفته في حكم الإمارة أسيراً في أيدي المسلمين ، وبسهولة اقتحم نور الدين القلعة ، وقد واجه القليل من المقاومة ، ومثل هذا انتزع من ايدينا بالقوة مدينة بانياس وأضافها الى ممتلكاته ، لأن عموري ملك القدس كان آنذاك بعيداً متغيباً في مصر ، ومنذ ذلك الحين بدأت قوانا تنهار ، ومع هذا دافع شعبنا عما بقي لنا من أرض ، ما دامت مملكتي مصر ودمشق باقيتان في أيدي حكام مختلفين ومتنازعين ، لكن عندما - بسبب آثامنا - قامت المملكتان المتقدمتا الذكر بمضاعفة قواهما عن طريق الاتحاد تحت قيادة سيد واحد ، بدأت مملكة القدس التي قامت فيما بينهما تعيش في فوضى واضطراب عظيم ، وجعل شيركوه - وكان واحداً من القادة لدى نور الدين - من نفسه بالقوة سيداً لمملكة مصر ، وتركها عند موته الى ابن أخيه صلاح الدين وكان صلاح الدين هذا حكيماً في تصرفاته ، وبارعاً في السلاح والحرب بعيد النظر ، وحازماً في عمله ، وكان كريماً جداً ، ومبسوط اليدين ، ليس فقط لشعبه ، بل أيضاً لبعض من شعبنا ، الذي جذبهم إلى جانبه بالهدايا والوعود ، ويعلم العالم كله كم من الأذى ألحقه بنا ، مثل سوط عذاب الرب ، وقد دمر الصليبيين ومزقهم إرباً إرباً ، لأنه بعدما قام هذا المتقدم الذكر بقتل (اقرأ : بعزل) مولاه خليفة مصر بشكل خياني (كذا) ، استولى على مملكة دمشق ، وانتزعها من مولاه الطفل الذي

كان يعيش في حلب ، وهو ابن نور الدين الذي كان الآن متوفى ، ذلك أنه كسب الى جانبه أعيان المملكة إما بوساطة الهدايا ، أو أرعبوا بوساطة العنف ، حتى يوافقوا على خيائته ، وقد مضى في سبيله للاستيلاء على بعض المدن الغنية العائدة للمولى المتقدم الذكر ، مع أنه كان شخصياً وأبوه من قبله عبيداً له، ومن هذه المدن : حماه، ومنبج، ومدينة حمص، التي تعرف بشكل عام باسم كامبلا، وقيسارية الكبرى، وكان بعد وفاة نور الدين قد وقع الابن المتقدم الذكر صاحب حلب ، تحت سيطرة عمه، صاحب الموصل، بموجب حق الوراثة، وقد انتزع صلاح الدين من صاحب الموصل المتقدم الذكر بالقوة ليس فقط حلب، بل منطقة الرها أيضاً، والبلاد جميعها حتى الفرات ، وكذلك مدن الجزيرة الجلييلة مثل الرها، وجعبر، وجميع البلاد تقريباً، وشكل قيامه ونجاحه رعباً بالنسبة لشعبنا وخطراً واكتئاباً ، خاصة وأن المسلمين كانوا في البداية — عندما قدم اللاتين الى البلاد أولاً— غير بارعين في الحرب ، وكانوا يذهبون نحو القتال وكأنهم غير مسلحين ، لا يحملون شيئاً سوى القسي والنشاب، ومن خلال الممارسات المستمرة ، والمواجهات المتوالية مع شعبنا في أرض المعركة، تعلموا النظام العسكري، وقلدوا اللاتين في استخدام الدروع والخوذ، والرماح والسيوف والترسة، ولزيادة مصائبنا وتبويجها آلت مملكة القدس ووقعت في يدي واحد لم يكن من ذرية الذين تولوا تحرير أرض الميعاد، ولهذا كانت هناك صراعات كبيرة وانشقاقات بين بارونات المملكة .

الفصل الثالث والتسعون

وكان أول اللاتين الذين تولوا الحكم في مملكة القدس هو غودفري، المحبوب من السماء، الذي حقق الرب من خلاله وصنع

واحدة ، وقد ألحق الهزيمة أثناء القتال بالقائد الأعلى لدى سلطان مصر، مع عدد لا يحصى من الكفار، وبعدها غادرت روحه الجسد، خلفه أخوه بلدوين كونت الرها، في حكم المملكة، فكان الملك الأول للقدس، لأن أخاه رفض ارتداء التاج الملكي في البقعة التي ارتدى فيها معلمه تاجاً من شوك، وتمكن بلدوين هذا مع مائتين وستين فارساً وتسعمائة من الرجالة، من الحاق الهزيمة بالقائد الأعلى لدى خليفة مصر، الذي قاد أحد عشر ألفاً من الخيالة وثلاثين ألفاً من الرجالة ضده، وقتل بلدوين القائد الأعلى نفسه مع خمسة آلاف من قومه، بينما أخذ بعضاً من البقية أسرى، وتمكن بعضهم من انقاذ أنفسهم عن طريق الفرار، وتمكن في معركة أخرى مع قوة صغيرة جداً من هزيمة حشد كبير من الناس من عسقلان ومن مصر، واستطاع في المعركة الثالثة ومعه خمسمائة فارس وألفين من الرجالة، أن يهزم عشرين ألفاً من المصريين، وقد قتل أربعة آلاف منهم، كان بينهم صاحب عسقلان، وأرغم البقية على الفرار . ولقد حكم لمدة ثمانية عشر عاماً ثم مات. وكان خليفته، والملك اللاتيني الثاني للقدس، بلدوين بورغ، وكان من أقربائه، وهو الذي التحم في السنة الثانية من حكمه بمعركة ضد (ايل) غازي أحد امراء الأتراك الأشداء جداً ، وكان بلدوين وقتها على رأس سبعمائة فارس.

وهزم غازي هذا في القتال، وكان يقود حشداً لا يحصى من الأتراك، وقد قُتل أربعة آلاف من قومه، ووقع بالأسر عدد كبير، وهو نفسه نجا بكل صعوبة مع البقية، وهزم في المعركة الثانية ، وهو على رأس ألف ومائة فارس وألفين من الرجالة، ملك دمشق، الذي قيل كان معه خمسة عشر ألفاً من الفرسان، الذي قتل منهم ألفين، وأسر عدداً كبيراً ، وجرح عدداً كبيراً جداً، وهرب البقية مع قائدهم، وسقط من جانبنا أربعة وعشرون. وفي المعركة الثالثة هزم هذا الملك العسقلانيين مع المصريين

الذين جاءوا لمساعدتهم، وقد سحق في المعركة الرابعة طغتكين، ملك دمشق، وقتل ألفين من الأعداء، وخسر فقط أربعة وعشرين فارساً وثمانين من الجنود الرجالة. ولقد حكم لمدة ثلاثة عشر عاماً، ثم مات.

وكان خليفته على العرش فولك، كونت أنجو، ولا مانس وتور، وهو الذي زوجه الملك المتقدم الذكر ابنته الكبرى ميليساندا، وقد خاض معركة قاتل فيها قرب أنطاكية ضد حشد لا يحصى تعداده من الترك، الذين تقاطروا من منطقة الخليج العربي، ونال نصراً مدوياً، حيث قتل ثلاثة آلاف منهم، وأخذوا عدداً كبيراً من الأسرى وأرغم البقية على الفرار، وقد حكم لمدة أحد عشر عاماً، لكن عندما كان يصطاد أرنباً برياً قرب عكا، تقنطر فرسه معه، وهلك بشكل مفاجيء ومخزن ومأساوي، وقد خلف من بعده ولدين: كان الأكبر بينهما بلدوين الذي خلفه على العرش، ثم عموري، ونال بلدوين هذا في السنة الثالثة من حكمه وهو على رأس جيشه كله، نصراً على عدد من نبلاء القادة الأتراك، في هذا الجانب من أريحا، وقتل خمسة آلاف منهم، وجعل البقية يفرون وهم مجلدين بالعار، وفي السنة الخامسة عشرة من حكمه قاتل هذا الملك نور الدين، أمير دمشق، وبقي سيداً للمعركة، في حين هرب نور الدين مع بعض قواته، بينما تعرض البقية للقتل، وقد حكم لمدة أربعة وعشرين عاماً، ومات بدون أولاد، وقد خلفه أخوه عموري، وحارب عموري في السنة الأولى من حكمه ضرغام، أمير الجيوش المصرية، في أرض مصر، ونال النصر بشكل عجائبي، بعدما قتل من الأعداء أعداداً كبيرة، وقاتل في السنة الثانية في قفار مصر، وهو على رأس ثلاثمائة وسبعين فارساً، ضد شيركوه، الذي كان القائد الرئيسي لدى سلطان دمشق، وكان في جيش شيركوه هذا اثني عشر ألفاً من الأتراك، وأحد عشر ألفاً من العرب، ولقد غادروا، عندما قتل مائة من رجالنا، ولقد قيل بأن ألفاً من الأعداد قد هلكوا، ولقد حكم لمدة

اثنى عشر عاماً، وعندما مات خلفه ابنه بلدوين على العرش، ولقد قدرت عليه السوء الإصابة بمرض الجذام، ومع هذا كان ملكاً قديراً، وفي السنة الثالثة من حكمه، التقى بصلاح الدين قرب عسقلان، وكان معه ثلاثمائة وخمسة وسبعين فارساً، بينما كان مع صلاح الدين ستة وعشرين الف فارس، وقد ألحق الهزيمة به، وهرب صلاح الدين مع بعض رجاله، أما البقية فقد قتلوا أو وقعوا بالأسر، و فقط أربعة أو خمسة من رجالنا - كما قيل - قتلوا. وتواجه مع صلاح الدين في معركة أخرى قرب طبرية، وقد هزمه، وكان معه سبعمائة فارس، في حين قيل كان مع صلاح الدين عشرين ألف فارس، وقتل بلدوين ألفاً من الأعداء، ومات من جانبنا عدد ضئيل فقط، ولم يكن بإمكان هذا الملك الزواج بسبب مرضه، وقام بتزويج أخته: سيبيلا وكانت الكبرى، وايزابيلا، وكانت الصغرى، من اثنين من النبلاء: وأعطى سيبيلا الى وليم صاحب السيف الطويل، مركز مونتفرات، وايزابيلا الى همفري صاحب تيرون (تبين)، وعندما توفي وليم المتقدم الذكر، خلف طفلاً صغيراً اسمه بلدوين، وقد زوج الملك أخته المتقدمة الذكر من شاب من بواتو اسمه غي لوزغنان، وبسبب إزدياد مرضه وإثقاله له ، سلم ادارة المملكة كلها اليه، لكن بعد أمد أغضب غي الملك، وهكذا فقد الاشراف على المملكة ، ثم دعا الملك الى الاجتماع أعيان المملكة، وجعل ابن اخته بلدوين يرسم ملكاً، وعهد ببلدوين وبالاشراف على المملكة والدفاع عنها الى كونت طرابلس، وبعد مدة وجيزة غادر الملك بلدوين المجذوم هذه الحياة، وكان الملك بلدوين الصغير قد مات أيضاً واعتلى غي العرش، من خلال مساعي زوجته سيبيلا، وبموجب حقها بالوراثة، وذلك دون أخذ موافقة كونت طرابلس، الذي كان الوصي على المملكة كلها، وبناء عليه كان الكونت ساخطاً جداً، لا سيما وأنه كان يحدث نفسه بالوصول الى العرش ، ولهذا عقد هدنة مع صلاح الدين، دون موافقة الملك ، الذي بات عدوه اللدود، ولكي يزيد من

قوته في المملكة، حتى يتمكن من مقاومة الملك، ومن أجل امتلاك الوسائل لإثارة النزاع، تزوج من الوارثة لطبرية وجميع الجليل، ومن هنا برز خطر عظيم وخلاف مدمر في المملكة، حيث وقف بعضهم الى جانب الكونت، وبعضهم الآخر الى جانب الملك.

الفصل الرابع والتسعون

كان صلاح الدين رجلاً عاقلاً، عارفاً بتجارب الحرب وقد أدرك من خلال الخبرة أن المملكة المنقسمة على نفسها لا يمكنها الصمود، وأن بإمكان الخلاف أن يدخل بسهولة من خلال ثغرة عظيمة، واستغل بشكل خاص الفرصة، بسبب أن (أرناط) صاحب الكرك قد حرق الهدنة التي عقدها شعبنا مع المسلمين، واستولى على الكثير من الأسلاب، وقد حشد حشداً عظيماً من المحاربين من جميع البلدان الواقعة تحت حكمه، واستدعى كل من الفرسان والرجال من مصر، ومن العربية، ومن دمشق، ومن حلب، ومن الجزيرة، للقتال ضدنا، وبعث أمامه عشرة آلاف من نخبة فرسانه، الذين عبروا خلال أراضي بلاد طبرية والناصرية حتى حدود عكا، وذلك أنهم أرادوا - حسب عادتهم - إثارة معركة مع شعبنا بغاية استدراجه وجعله يلاحقهم باندفاع وبدون نظام، ومن ثم الاطاحة برجالنا أو أخذهم أسرى، ولم تنطل خديعة المسلمين هذه علينا، وأخفقوا في تحقيقها، لكن اندفع نحوهم المقدم الأعلى لفرسان الداوية ومعه أكثر من سبعمائة فارس، وذلك مع المقدم الأعلى لفرسان الاسبتارية، الذي كان عائداً مع عشرة من الفرسان من قلعة كوكب الهوا، وقد كانوا قد فصلوا بوساطتهم عنهم قرب قلعة كفرنا (روبرقي)، ومع أنه كان برفقتها مائة وعشرين فارساً فقط وقفوا في وجه عشرة آلاف من المسلمين، فإنهم قاوموا برجولة، وقتلوا عدداً كبيراً منهم، لكنهم أنفسهم إما قتلوا أو أخذوا أسرى، ونجا المقدم

الأعلى للداوية مع عدد قليل من الأتباع، وقد قتل المقدم الأعلى للاستتارية، وهكذا نال العدو في اليوم الأول من أيار نصراً دموياً على شعبنا، وقام المسلمون، الذين تشجعوا بهذا، فحشدوا جميع قواهم، وقاموا في حزيران التالي بحصار أقصى مدينة في مملكتنا باتجاه دمشق، وأعنى بهذا مدينة طبرية، لأن كونت طرابلس، التي عادت المدينة بملكيتها إليه، قد انسحب من التعامل مع المسلمين عندما خرقت الهدنة، لأنه قد قيل له بأنه كان حليفاً للمسلمين، وأنه جلب شروراً كثيرة ضد الملك وضد المملكة، وبناء عليه تولى تحصين المدينة المتقدمة الذكر ضد المسلمين، وترك زوجته فيها مع حامية من الجند. وقام الآن اللورد غي، ملك القدس، وريموند كونت طرابلس مع جميع نبلاء المملكة وكل الفرسان والرجالة الذين كان بإمكانهم حشدهم، قاموا في ساعة نحس، وقد حرّموا من مساعدة السماء، وتوجهوا نحو قتال صلاح الدين وقومه، ونصبوا خيمهم قرب نبع الصفورية، ووثقوا بأعدادهم الكبيرة واعتمدوا عليها أكثر من اعتمادهم على المعونة السماوية، لأنه منذ دخول شعبنا الأول إلى الأرض المقدسة لم يكونوا قط قادرين على حشد مثلما حشدوه الآن من جنود للقتال في معركة واحدة، وقد قيل كان معهم اثني عشر مائة من الفرسان الدارعين وحوالي العشرين ألفاً من الرجالة المسلحين بالسيوف والقسي، والقسي العقارة، فهؤلاء جميعاً شاركوا في هذه الحملة التعيسة، وفي اليوم التالي عندما كان جيشنا يزحف باتجاه المدينة المحاصرة، هاجمه حشد من فرسان جيش صلاح الدين الخفاف بشكل شرس جداً من على اليمين ومن على اليسار، وضاعفوا الجراحات التي أصيب بها كل من الخيول والفرسان حتى أرغموا الجيش على العسكرة ونصب خيامه في بقعة جافة ليس فيها ماء، وراقب صلاح الدين بحكمة هذا كله، وواجه جيشنا في اليوم التالي قبل أن يستطيع الوصول إلى الماء، وكانت المواجهة في حطين، على مقربة من ترعان، وانقض بقواته المعبأة بصفوف وفق النظام العسكري، على

عساكرنا، الذين كاد الفرسان فيهم والخيول يهلكون عطشاً، وكان اليوم آنذاك حاراً جداً، لأن المعركة كانت في شهر تموز في اليوم الرابع منه، وهو يوم عيد انتقال القديس مارتن، وذلك في عام ألف ومائة وثمانية وسبعين لتجسيد الرب، ولدنوبهم الكثيرة ألقى الرب الشعب المسيحي في أيدي المسلمين، لأن شعبنا فرّ لدى تلقيه الصدمة، وكان أفرادهم من الكبير الى الصغير إما أن قتلوا أو وقعوا أسرى، وجللهم الرب بالعنار، مع الرعب والجبن، وبات الآن دور كل واحد من الأعداء ليقوم بمطاردة مائة من رجالنا، وقد رمى بعضهم بأسلحتهم، وألقوا بأيديهم واستسلموا عن طواعية الى أيدي المسلمين، وبعد مقتله كبيرة اقتيد غي دي لوزغنان مع المقدم الأعلى للدواوية وأعداد أخرى كبيرة من ذوي المراتب العليا، اقتيدوا أسرى، وكانوا قد فروا بشكل جبان من أمام مطاردتهم، ولهم أن يعرفوا بعلامة مؤكدة، وبرهان واضح، أن الرب كان غاضباً عظيم الغضب منهم، وأن ستر وقايته الربانية قد سحب عنهم، ولقد واجهوا حظاً عاثراً في ذلك اليوم الأسود بفقدانهم خشبة صليب انقاذنا، الذي كانوا قد حملوه معهم الى المعركة، وارتأى صلاح الدين أن يقوم بتدمير كلي لرهبنتي الداوية والاسبتارية في الشرق، لذلك أصدر الأوامر بقطع رأس كل واحد منهم يقع في أيدي رجاله.

الفصل الخامس والتسعون

بعد مضي وقت طويل على هذه الكارثة، بذل عدد كبير من المسيحيين جهودهم للنجاة، وغدا الذين بقوا في المدن وفي الأماكن الحصينة جناء مثل النساء وانقبضت قلوبهم، ولهذا لم يتجرأ العديد منهم على انتظار الهجوم من قبل أعداد قليلة من المسلمين، وهكذا، إثر الانتصار المتقدم الذكر، وصل صلاح الدين الى أمام عكا، فاستسلموا إليه على شرط الإبقاء على حياتهم، وزحف من هناك الى بيروت، واستسلمت

تلك المدينة اليه بدون أدنى مقاومة من قبل سكانها القانطين رعباً، وكذلك حصل على جيبيل بدون صعوبة، ولم تتجرأ مدينة من المدن القائمة على الساحل من عكا الى عسقلان على مقاومته، هذا وقام شعب قيسارية الذين اعتقدوا أن مدينتهم لاتزام بإيقاف تقدمه لبعض الوقت، وأجابوا أنهم لن يستسلموا حتى يعلموا هل شعب القدس سيقى صامداً أم سيستسلم، وعندما نصب خيامه أمام القدس، تخلوا عن المدينة إليه على شرط أن يخرجوا منها أحراراً، وأن يحملوا من مقتنياتهم ما يمكنهم حمله، وأن تجري مرافقتهم الى أرض يأمنون فيها، وهكذا نجوا من أيدي الأعداء، لكنهم عندما وصلوا الى طرابلس وقعوا في أيدي أعظم سوء، وهي أيدي أئمة مدنسة، فكل ما جلبوه معهم أخذه بأكمله وانتزعه منهم بوهيموند كونت طرابلس، مع أبناء الشيطان من أتباعه، الذين كان من المتوجب عليهم اظهار الرحمة نحو اخوانهم المنفيين، غير أنهم برهنوا أنهم أكثر وحشية تجاه المسيحيين من المسلمين، ولقد قيل فعلت هناك أفاعيل خسيصة لم يسمع بمثلاها في القرون الخالية، فقد كانت هناك أم تحمل على كتفها طفل صغير لها، فسلبت من قبل هؤلاء الأعداء الأشرار، ذلك أنهم لم يوفروا أحداً لا لمنصبه ولا لجنسه (رجلاً كان أم امرأة)، ولم يتحلوا لابلحياء ولا بالتحجل ائثار سلبهم، وعندما رأت هذه المرأة أن مقتنياتها التي تركها لها المسلمون، للحفاظ على نفسها وعلى طفلها، قد أخذت منها وانتزعتها الذين فرت إليهم لاللتجاء، تحولت الى حالة من اليأس والألم والهياج والقنوط، الى حد أنها قذفت بولدها الى البحر.

وعاد صلاح الدين الى عسقلان، واستسلمت المدينة اليه على شرط أن يطلق سراح الملك والمقدم الأعلى للداوية، اللذان كانا مسجونين لديه، ثم تابع زحفه كعسكري نشيط وفعال الى طرابلس حيث وجد سكان المدينة مع اللاجئين جاهزين لمقاومته، ولاعتقاده أن هذه المدينة لن تنجو منه

إذا ما عاد إليها في وقت آخر مناسب، بعد احتلاله لبقية الأماكن الحصينة، زحف نحو أنطاكية، لأنه في ذلك الوقت لم يكن مهتماً بشغل وقته كثيراً مع القلاع القائمة على شاطئ البحر، ذلك أن زعيم القراصنة واسمه «مرجريت» وكان رجلاً واسع النفوذ في البحر، قدم من مملكة صقلية مع ثمانين من الغلايين لمساعدة شعبنا، حيث أنه أرسل من قبل الملك الشجاع والشهير وليم صاحب صقلية، فعندما سمع هذا الملك بالسقوط المحزن لمملكة القدس، من الذين هربوا بوساطة البحر والتجأوا إلى بلاده، بادر على الفور في ذلك الصيف، ولم يكتف بإرسال الغلايين المتقدمة الذكر، بل بعث بخمسة مائة من الجنود، وثلاثمائة من التوركيبي، وكميات هائلة من المؤن لمساعدة المتبقي من البلاد، وللأناس الطيبين والذين يخشون الرب.

ودفعت روح صلاح الدين اللجوجة به للقيام بمتابعة نجاحاته بكل نشاط، فاستطاع خلال ثلاثة أشهر أن ينال إمارة أنطاكية كلها باستثناء قلعة بطريك أنطاكية التي كانت لا ترام واسمها قورس *Cursatus* ، ومدينة أنطاكية نفسها، التي رفع الحصار عنها لدى تسلمه مبلغاً كبيراً من المال من البطريرك، مع القناعة والتأكد أنه بعد الاستيلاء على الأماكن الحصينة المنتشرة هناك، فإن مدينة واحدة لن يكون بإمكانها مقاومته، لأنه جعل نفسه سيداً لأكثر من خمس وعشرين مدينة وبلدة في تلك الإمارة، ولهذا عاد إلى مملكة القدس، وقام مستخدماً جيشه بأكمله، فحاصر مدينة صور براً وبحراً، وهي المدينة الوحيدة التي تركت بين مدن الأرض المقدسة، وكان في صور آنذاك نبيلاً شجاعاً هو كونراد مركيز مونتفرات، الذي أبحر إلى هناك على ظهر سفينة من القسطنطينية، وكان ذلك في اليوم نفسه الذي أطيح به بشعبنا في المعركة المتقدمة الذكر، ووعده هذا الرجل سكان المدينة أنه سيتولى الدفاع عن المدينة إذا وعدوا بتسليمه إياها إذا تولى حفظها من العدو، ووافق سكان المدينة

متطوعين وشاكرين على فعل ذلك، لأنهم كانوا قانطين، ولم يعتقدوا أنه كان من الممكن لهم الصمود في وجه جبروت صلاح الدين، الذي جعل الآن من نفسه سيداً لجميع البلاد، وقاوم كونراد صلاح الدين برجولة من جانب البر، وألقى النار في غلايينه في البحر، ولهذا قام وهو غاضب ومضطرب برفع الحصار والمغادرة على الفور، وكان قد فكر بتضييق الحصار على سكان صور، وازغامهم على الاستسلام دونما تكاليف كبيرة وخسائر، وبدون سفك لأي من الدماء، وكان من الممكن له أن يحقق هذا بسهولة لولا أن الرب أمدّ بالعكس، لأن صلاح الدين كان قد أرغم قلاعاً قوية مثل: صغد، وكوكب الهواء، وتبين، والشقيف في الجبال، على الاستسلام، وعلى كل حال كان بإمكان هذه القلاع المقاومة طيلة الوقت الذي توفر فيها المؤن، وكيف كان بالحقيقة لعدد قليل من الرجال المرعوبين والذين بلا عون الصمود من دون هذا الأمير الشجاع، في وجه الذي جعل من نفسه سيداً، ليس فقط لأرض مصر بل لكل سورية تقريباً، أي من نهر الدجلة حتى مصر، ومن قليقيا حتى البحر الأحمر.

الفصل السادس والتسعون

يدعى القسم الأول من سورية، القائم بين نهري الفرات والدجلة باسم الجزيرة السورية، ويدعى القسم الآخر باسم سورية المجوفة، ويقوم في هذا الجزء مدينة أنطاكية، مع المدن الخاضعة لها، وهي تصل حتى نهر بانياس تحت قلعة المرقب، ويدعى القسم الثالث من سورية باسم سورية الساحلية أو سورية الفينيقية، وفيه يقع مدن: طرابلس، وصور، وعكا، وهو يبدأ عند النهر المتقدم الذكر، وينتهي عند lapis In- التي تعرف باسم عثليت Districtum ، واسمها في هذه الأيام قلعة الحجاج، ويدعى القسم الرابع باسم سورية اللبنانية، حيث يقوم جبل لبنان، وكذلك يعرف باسم سورية دمشق، لأن دمشق هي

العاصمة، ويعرف أحيانا بكل بساطة باسم سورية، ذلك أن الجزء قد يأخذ اسم الكل، حسبها في جاء القول: «رأس آرام — سورية — دمشق» (اشعيا: ٨/٧)، وهناك ثلاث فلسطينيات، التي هي جزء من سورية الكبرى وعاصمة الجزء الأول القدس، ويدعى هذا الجزء بشكل خاص باسم «اليهودية»، والجزء الثاني هو الذي عاصمته قيسارية فيليب (اقرا: فلسطين)، والقسم الثالث هو الذي عاصمته سكيثوبولس، التي تعرف في هذه الأيام باسم بيسان، زد على هذا إن كل من العربيتين جزء من سورية: والجزء الأول هو الذي عاصمته بصرى، والجزء الثاني هو الذي عاصمته البتراء في القفارة، هذا وإن سورية سوبال Sobal، (النقب) التي عاصمتها سوبال هي جزء من سورية الكبرى، والجزء الأخير من سورية هو أدوم، المتجهة نحو مصر، وهكذا فالعدو بهذه العظمة والقوة، ذلك أنه يسيطر على مثل هذا العدد من الممالك؛ وعدد كبير من الرؤوس الهمجية، أقامها الرب ضدنا، كما هو الحال الآن، لتكون سوط انتقام الرب بسبب آثامنا.

الفصل السابع والتسعون

وهكذا هزت مصائبنا المؤسفة، والأخبار المحزنة لما حل بنا، جميع بلدان الغرب، ولقد ارتاع كل من سمع بها حدث، وأصيب الناس بجراح محزنة، وتقدم هؤلاء وتصدرهم أوريان الأب المبجل، الذي كان آنذاك بابا الكنيسة الرومانية المقدسة، فعندما سمع بالأخبار استولى عليه حزن لاعزاء له، لأن الكنيسة الشرقية قد تعرضت للدمار بشكل مؤسف، وباتت مشعثة بشكل لا يمكن ترميمها فيه، وعندما علم بأن الأماكن المقدسة قد تدنست، وديست من قبل كلاب غير نظيفة، وأن خشبة الصليب الثمين، صليب خلاصنا قد استولى عليها وتداولها أناس غير أتقياء وغير جديرين بالاحترام، وأن الأرض المقدسة — التي سلف

وحررت لقاء سفك الكثير من الدماء المسيحية — قد احتلت ثانية من قبل القوم الكفار والمدنسين، أثر به الحزن وأزعجه كثيراً إلى درجة أنه وقع مريضاً مصاباً بالحمى، ولم يمض وقت طويل حتى مات، بسبب الحمى، وبسبب الحزن، وبسبب الضعف، وكان خليفته على العرش البابوي غريغوري (الثامن ٢٩ت ١ — ١٧ك ١١٨٧)، وكان رجلاً جيداً، وجديراً بالقبول التام، لكن لذنوبنا توفي بعد سبعة أشهر، وجاء بعده كليمنت الثالث (١٩ك ١١٨٧ — ٢٧ آذار ١١٩١)، الذي رفع إلى أعلى مقام لاهوتي، وقد عمل مع أخوانه الكرادلة في جميع السبل الممكنة للحفاظ على المسيحيين الذين تركوا في أعداد قليلة، بمثابة شياه وسط ذئاب، ولقد دعا أمراء الغرب وهددهم وناشدهم، وكذلك جميع الشعب المسيحي المؤمن، للقيام بتحرير الأرض المقدسة، ومنحهم غفراناً تاماً من جميع ذنوبهم، وذلك بالإضافة إلى أنهم سينالون التأييد من السماء، وحثهم على عدم التأخر في القدوم لإنقاذ كنيسة المسيح ومدينة خلاصنا، وبناء عليه حدث أن قام: فردريك امبراطور الامبراطورية الرومانية، وفيليب ملك فرنسا، ورتشارد ملك انكلترا، مع جميع الأمراء تقريباً والدوقات، والإيرلات، والنبلاء في ممالكهم، وبرفقة رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الدير، وبقية الشخصيات اللاهوتية، والناس من الأنواع المنحطة، وكانوا أكثر من أن يستطيع انسان تعدادهم، هؤلاء جميعاً قاموا فوضعوا على أكتافهم رباط الصليب المانح للحياة، وأعطوا عهداً مقدساً أكيداً بالحفاظ على الأرض المقدسة، وشجع أحدهم الآخر بالكلام وبالفعل بضرب المثل بنفسه وبإلهاب الحماس لدى الآخرين، حتى بدا من العار ومن المهانة بالنسبة لهم البقاء في الوطن مثل الكسالى والجنباء في حين كان الآخرون ذاهبون لأداء صليبتهم.

الفصل الثامن والتسعون

وكان الملك غي في الصيف الذي أعقب فقدان الأرض المقدسة غير قادر على استرداد صور، لان المركز المتقدم الذكر قد تولى الحفاظ عليها، وادعى ملكيتها بموجب الاتفاق الذي عقده (مع أهلها)، ومن جميع المملكة التي كانت بحوزته لم يبق لغني ولا حتى مقدار قرية واحدة يتخذها مقراً له، وكان ممتلئاً بالشعور بالعار وبالفوضى، لاسيما وأن الأرض المقدسة قد ضاعت أثناء حكمه، وبما أنه لم يعرف الاستقرار في حياته، قام مع عدد صغير جداً من الأتباع تولى حشدهم، بإلقاء الحصار على عكا، ونصب خيمته على هضبة مرتفعة قرب المدينة، وكان معه أخوه غيوفري دي لوزغنان، وكان رجلاً شجاعاً ومقداماً، وقد استطاع بفضل أخيه أن يصبح المقدم على جميع الحجاج الآخرين، ويحكى أنه عندما سمع صلاح الدين بهذا حمد الله لإيقاعه بقية الصليبيين مع ملكهم بين يديه، وفي الحقيقة لم يكن بإمكان مثل هذا العدد الضئيل من الرجال أن يصمد في وجه سكان عكا، فكيف أمام صلاح الدين وحشوده التي لاتعد ولا تحصى، وعندما طلب منه أمراؤه الاسراع بأخذ الجائزة التي وضعها الله على طريقه، يحكى أنه أجابهم، بأنهم لن يفلتوا منه، وأنه يرغب في انتظار وصول أخيه— الذي كان متوقفاً وصوله قريباً — ليشارك في متعة النصر، لكنه علم من «خلال التجربة بعد مضي عدة أيام أن التأخير والتعاس عن العمل سوف يسبب الضرر، ذلك أن أحد النبلاء، وكان من عبيد الرب المجريين جداً اسمه جيمس أوفرين -Au- vergne، جاء وقت الحاجة، وعسكر أمام عكا ومعه قوة من الفلمنكيين، والبرابانتين والفريزيين، فضلاً عن هذا لم يمض طويل وقت حتى وصل حشد من النبلاء مع آخرين من شامبين وبيروغندي وبعض الناس من إيطاليا، وعسكروا أمام المدينة السالفة الذكر، ولكي

يتجنبوا هجمات غير متوقعة ومفاجئة من قبل المسلمين حصنوا معسكرهم بخندق امتد على جميع الجوانب، وتحتاج المسألة إلى وقت طويل للحدوث عن المآسي والمصاعب والمخاطر والخسائر التي عانوا منها قبل قدوم ملكي فرنسا وانكلترا، لأن المسلمين غالباً ما أحرقوا أدوات حصارهم، وقتلوا عدداً كبيراً منهم، وأصابوا الكثيرين منهم بجراحات مميتة بوساطة النشاب والحراب، في حين مات كثير منهم على الرمل أمام المدينة من الجوع، ومن الإعياء، وبالبوء، والآن وقد رأى رجال شعبنا أنه ليس من السهل عليهم الاستيلاء على المدينة، وأن صلاح الدين مع جيشه يناوشهم دوماً حول خندق معسكرهم، قرروا في أحد الأيام الزحف والخروج من معسكرهم لقتال العدو، ومع أن المسلمين كانوا كثرة متفوقة بالعدد على شعبنا، لم يتجرأوا على انتظار هجوم رجالنا، وهربوا تاركين معسكرهم خلفهم، وعندما وصل شعبنا إلى معسكر المسلمين بدون مقاومة، خافوا واستبد بهم الرعب، وكأنها كان ذلك صادر عن حكم سري من الرب، فهربوا، مع أن ما من انسان طاردهم.

وعندما رأى المسلمون هذا استردوا ثقتهم بأنفسهم وجرأتهم، وعادوا يطاردون شعبنا، وبدأوا في عقر الخيول وجراحة الفرسان بوساطة موجات متواصلة من السهام المتطايرة، وتمكن المسلمون من تطويقنا بفضل عددهم، وقتلوا عدداً لا بأس به من نبلائنا الكبار، الذين ثبتوا في مواقعهم، ورأوا من العيب والعار إدارة ظهورهم، وكان بين هؤلاء المقدم الأعلى للداوية، وأندرو دي بريين، اللذان قتلا في هذا اليوم مع آخرين كثير، وكان الخوف الذي استبد بشعبنا هائلاً، وكذلك الفوضى، وكان الذي أصاب رجالنا أثناء فرارهم من رعب كبيراً جداً، ووصل الأمر إلى حد أنه ما كان بإمكان واحد من الذين زحفوا النجاة، لولا قيام غيوفري دي لوزغان، الرجل الشجاع، والجندي المجرب، السالف الذكر— الذي

بقي في المعسكر لحراسته — بالمبادرة لتقديم العون إلى شعبنا مع ما قدر على جمعه من الرجال.

ويحكى أن شعبنا دبت بين صفوفه الفوضى في ذلك اليوم بسبب حادث غريب، فقد شرد فرس من صاحبه وهرب، وعندما ركض عدد كبير خلفه وهم يصرخون، اعتقد الآخرون أن رجال شعبنا كانوا يفرون من أمام العدو، وهكذا فر الجميع واتخذوا طريقهم نحو المعسكر إلى خيمهم، أو لنقل إلى عارهم العظيم وإلى إلحاقهم الأذى العظيم بقضية المسيحيين.

وبعدما انتظر شعبنا في أرض المعركة لمدة سنة ونصف السنة وصول الامبراطور والأمراء الآخرين الذين كانوا سيتبعونهم، عانى أفرادهم من مجاعة شديدة وندرة في الأطعمة داخل المعسكر وصلت إلى حد إرغامهم على أكل لحوم الخيول وأجساد الحيوانات الميتة، لأن مكيال (بوشل) الدقيق الواحد الذي كان يباع في الأوقات العادية بنصف قطعة نقدية (بيزنت) بيع وقتذاك بستين قطعة، وبناء عليه أعلن الجنود الرجالة في الجيش أنهم لا يمكنهم الاستمرار بتحمل مثل هذا العوز، فانطلق منهم ثلاثون ألفاً في عددهم ضد أوامر قادتهم، بغية مهاجمة المسلمين، ونهب الأطعمة من معسكرهم، وتظاهر العدو الماكر بالفرار، وجعل هؤلاء الناس الطائشين يثقلون أنفسهم ليس فقط بالأطعمة، بل أيضاً بالذهب وبالفضة وبالآثاث من مختلف الأنواع، وعندما كانوا في طريق عودتهم مثقلين هكذا، ومعاقين بالأوزان الثقيلة تحولت قيادتهم إلى النحيب والمناحة (يعقوب: ٣٠/٣١ — الأمثال: ١٤/١٣)، وكانت نهاية هذا المرح التعاسة: لأن المسلمين حملوا عليهم بأصوات عالية، ولم يوجد بينهم واحد كان قادراً على مقاومة الأعداء، فلقد ألقوا بأثقالهم وتحلوا ليس فقط عن الذهب والفضة، بل حتى عن سلاحهم، وسقط تقريباً كلهم على الطريق أو سيقوا إلى داخل البحر وغرقوا، وأصيب بعض

الذين نجوا منهم لرعبهم بالجنون، وهكذا جعل الرب تدمرهم وعدم طاعتهم سبباً لعقابهم، وفي تلك الأثناء توفيت سيبلا زوجة الملك السالف الذكر، في داخل المعسكر، وهكذا آل التاج بموجب حق الوراثة إلى أختها ايزابيلا، زوجة همفري أوف تيرون (تبنين)، ويحكى أنه عندما سمع بهذا مركيز مونتفرات، الذي كان قد جعل من نفسه سيداً لصور، استبدت به مطامحه السلطوية والرغبة في العرش، فانتزع ايزابيلا المتقدمة الذكر من زوجها، وتزوجها على الفور، ومهما يكن الحال، كان الحجاج غير راضين ومزعوجين كثيراً تجاه مثل هذه الجريمة العظيمة، ومع هذا، لقد رفضوا طلب الكونت المتقدم الذكر، وصرفوه بأعداء، عندما سأهم الإنصاف ورفع الغبن عنه، لأنه لم يكن بإمكانهم الحصول على الطعام من أي مكان غير صور، وذلك عبر يدي المركيز السالف الذكر، فضلاً عن هذا لقد رشا بعضاً من مقدمي الجيش لدعم قضيته.

الفصل التاسع والتسعون

بينما كانت هذه الأقدار المتغيرة هي حال الذين كانوا على أرض المعركة، انطلق فردريك، امبراطور الرومان، وشرع برحلته عبر البر ومعه قدرات عظيمة، وحشد من المقاتلين لايحصى تعدادهم، وبعد ما عبر حدود ألمانيا، اجتاز هنغاريا، ومكدونيا، وبلاد الاغريق، وزحف خلال بلاد المسلمين بقوة وجبروت وسيطرة، واستولى على قونية ثم فيلومينا، (إلغين) ومدناً أخرى كثيرة، ووصل إلى أرمينية (كليزيا)، ونزل وسط حر عظيم إلى نهر يدعوه السكان المحليون باسم (نهر الحديد) «النهر الأزرق»، وكان يريد الاستحمام، لكنه غرق بشكل مأساوي، بسبب ذنوبنا، ومات مما شكل خسارة عظيمة لجميع المسيحيين، وخشي صلاح الدين كثيراً من وصوله لهذا أمر بهدم أسوار اللاذقية، وجبله، وطرطوس، وجبيل، وبيروت، وأبقى الحصون فقط أي القلاع والأبراج.

والآن بعد ما أمضى كل من فيليب، ملك فرنسا، ورتشارد، ملك انكلترا الشتاء في برنديزي، بانتظار إلتحاق ساقه جيشها بها، بعد هذا أبحرا إلى ميناء عكا، وكان ذلك في الربيع الذي جاء إثر ذلك الشتاء، وكان معها سفن وغلايين، وخيول كثيرة، وآلات حرب، ومخزونات من المؤن، وقد جعلوا جيش شعبنا يمتلىء بسرور هائل. وكان أولهما بالقدوم ملك فرنسا، لأن رتشارد، ملك انكلترا، قام قبيل وصوله، بالاستيلاء على جزيرة قبرص، وأطاح بالاغريق الذين كانوا هناك.

وقاموا الآن بإلقاء الحصار على عكا، وطوقوها من جميع الجهات، وهاجموها بشكل متواصل خلال الصيف كله، في حين قاوم الذين كانوا بداخلها برجولة، وكانت آلتهم مكافئة لآلاتنا، وأحرقوا بالنار الاغريقية القلاع الخشبية التي بناها شعبنا مقابل نفقات عالية، وألحقوا بشعبنا الكثير من الأضرار، لكن حدث في أحد الأيام، أن صلاح الدين كان مرسلًا بنجدة من الرجال الجدد المسلحين إلى المدينة، ومعهم عتاد وسلاح ومؤن، على ظهر سفينة كبيرة جداً تدعى «درمون» فالتقى ملك انكلترا بهذه السفينة عند مدخل ميناء عكا، وكان معه غلايينه، ولقد أغرقها وأنزلها إلى قاع البحر مع جميع الجنود الذين كانوا فيها، مما بعث السرور العظيم وسط المسيحيين، وسبب اضطراباً بين المسلمين، وقد قيل إنها حملت بالإضافة إلى بقية حمولتها بعض الثعابين، كانوا عازمين على إرسالها ونشرها في جيشنا، وأعتقدوا أنهم بذلك سيلحقون بنا أذى عظيماً، وقصف فيليب ملك فرنسا أسوار المدينة، وأبراجها، ودفاعاتها بشكل متواصل في كل من الليل والنهار، بوساطة حجارة ضخمة، وبذلك دمر آلات العدو، مع أبنية في داخل المدينة، ولم يعط المحاصرين راحة، ومن جانب آخر قام ملك انكلترا بحملات متوالية مرعبة على المحاصرين، ونتيجة لهذا، أخذ السور يضعف ويترنح نتيجة القصف بالحجارة المستمر ضده، واقتنع سكان المدينة أنه لن يمكنهم متابعة

بالحجارة المستمر ضده، واقتنع سكان المدينة أنه لن يمكنهم متابعة المقاومة لمدة طويلة، لهذا قاموا بتسليم المدينة على شرط أن يتمكنوا من الزحف منها بحرية وبدون إعاقة ولا أذى، وتعهدوا أنهم سوف يسلمون صليب الصلبوت ويعيدونه وهو الذي خسره الصليبيون في المعركة، لكن بما أنهم لم يتمكنوا من العثور عليه، غضب ملك انكلترا غضباً عظيماً، وأمر بجعل الأسرى الذين هم في شطره من المدينة طعمة للسيف، لكن ملك فرنسا تعامل مع المسلمين الذين كانوا في أسره بشكل أكثر لطفاً، وألقى بهم في السجن لمبادلتهم مع شعبنا، ومع هذا عمل ملك انكلترا المزيد من الأعمال لإيذاء العدو واضعافه بقتل عدة آلاف منه، الذين لو أنهم عاشوا لأمكنهم فيما بعد إلحاق الكثير من الأذى بالصليبيين، وعندما رأى صلاح الدين أن المدينة قد جرى الاستيلاء عليها، وأن قسماً كبيراً من قواته قد دمر، شعر بالإحباط إلى حد كبير، وفقد الأمل بالقدرة على الدفاع عن المدن الأخرى ضدنا، ولهذا أمر بتدمير أسوار المدن القائمة على شاطئ البحر، وهي مدن: بروفيريا (قرب حيفا)، وقيسارية، ويافا، وعسقلان، وغزة، والدارون (دير البلح)، وأعاد الملك رتشارد بناء يافا وحصنها، وألقى بعد هذا صلاح الدين الحصار عليها، لكن الملك يادر إلى هناك على متن غلايين بوساطة البحر، وتبعه جيشه بصعوبة كبيرة على الطرق البرية، وتمكن من إنقاذ المحاصرين، وطرد حشد المسلمين، وارتعب المسلمون الآن كثيراً، وحلت بين صفوفهم الفوضى، وانهمزوا مع أميرهم من أمام وجه شعبنا، ويات الآن بإمكان شعبنا بسهولة ليس فقط نيل مملكة القدس، بل الأجزاء الكبرى من بلادهم، لولا أن عدو الجنس البشري، وأعني به الغيرة، حقق نجاحات كبيرة بين المسيحيين، وبذر الزوان بين الملكين، وكان هناك توتر شديد بين الأمراء، وسبب هذا تيههم في القفار حيث لم تكن هناك طرق، وحاولت كل مجموعة أن تنال مجدداً لنفسها، وسعت وراء مصالحها، وليس وراء الأشياء العائدة ليسوع المسيح، وأدخلت إهاناتهم لبعضهم

بعضاً، وغيره أحدهم من الأخر السرور إلى قلوب أعدائهم، وأنزلت بين صفوف المسيحيين والمسيحية اضطراباً عظيماً، وكان الخلاف والحسد، والتباغض، وانعدام الوفاق بين الملكين قد وصل إلى حد، أنه عندما كان ملك فرنسا يقوم بالهجوم على واحد من جوانب المدينة، كان ملك انكلترا يرجع شعبه ويمنعه من الحملة، ويحول بينهم وبين معاناة المهجوم والقيام به على جانب آخر، فضلاً عن هذا ربح إلى جانبه أكبر عدد ممكن من الأمراء والبارونات بالهدايا وبالوعود، وجعلهم يقفون إلى جانبه، وانزعج ملك فرنسا كثيراً وتوجس شراً من كل هذا، ولأنه كان مريضاً، ذهب عائداً إلى بلاده مباشرة بعد الاستيلاء على عكا، وخلف من ورائه دوق بيرغندي مع جزء كبير من جيشه، لكنه لم يكن حكيماً في نشره أخبار عودته المبكرة إلى وطنه، فقد قيل: كان صلاح على استعداد للتخلي عن البلاد كلها لنا، لو أن الملكين تظاهرا بأنهما كانا على وئام بالنسبة لغزوها، وكانا متسالمين وعلى وفاق بين بعضهما بعضاً. وانطلق الآن ملك انكلترا مع جيشه، وبرفقتة دوق بيرغندي، من عكا نحو يافا، وذلك بنية إلقاء الحصار على القدس، وواجهها وهما على الطريق عدداً كبيراً من المشاكل، لأن صلاح الدين لاحق القوات الزاحفة بعدد لا يحصى من الجنود والتوركبلية مع مسلمين كانوا يطلقون النشاب عليها من الجانبيين مثل السحب، ولهذا تمكن شعبنا بصعوبة بالغة جداً من الوصول إلى مدينة أرسوف، بين قيسارية ويافا، وذلك بعد عقر عدد كبير من الخيول، وإصابة فرسانها بجراحات خطيرة، وقد جرح الملك نفسه بنشابة أثناء ذلك الزحف، وقام عندما كان قرب القلعة المتقدمة الذكر بحملة عنيفة جداً على المسلمين، وأراد من ذلك دفعهم إلى الخلف، وتولى الضغط عليهم أثناء التراجع فقتل عدداً كبيراً منهم، لكن ذلك لم يكن بدون خسائر فادحة عانى منها الجيش المسيحي، لأنه في ذلك اليوم سقط الفارس النبيل، والمقاتل الشجاع جيمس أوف أو فرين مع عدد كبير من الآخرين الذين نالوا تاج الشهادة، وذلك أثناء قتالهم المسلمين

في مكان منعرل، لم يكن معروفاً من قبل شعبنا، وحمل صلاح الدين نفسه مع الفارين الى القدس وفي الوقت نفسه أقام شعبنا معسكره في مكان يدعى بيت نوبة بين يافا والقدس، على نية الزحف من هناك الى القدس لإلقاء الحصار عليها ، وفي هذا المكان وصلت أخبار الى الملك رتشارد تحدثت عن قافلة عظيمة قادمة الى جيش صلاح الدين من مصر، مع أعداد لا تحصى من البغال، والخيول، والجمال، محملة بالأطعمة والبضائع الأخرى، وشرع على الفور مبادراً لاعتراض سبيلها، وزحف خلال الليل، وعاد الى جيشه وقد جلب معه الكثير من الأسلاب، غير أنه كان قد ترك جيشه في حالة رعب عظيم، لأنه أخذ الجزء الأعظم من أتباعه معه، وخلف وراءه عدداً ضئيلاً مقارنة بقوات صلاح الدين، وبعد هذا عقد شعبنا مجلساً حريباً، قرروا فيه عدم القاء الحصار على القدس في الشتاء، ذلك أنهم رأوا أنهم لا يمتلكون بين القدس وعكا موقعاً حصيناً باستثناء يافا، وأنه لا يمكنهم جلب المؤن لإطعام الجيش من دون خطر عظيم واضح، ولهذا تخلوا عن مغامرتهم مع أن ذلك كان وسط بكاء الكثيرين، والحزن المرير للجزء الأعظم من الجيش، وفي الحقيقة قال كثير من الناس، وأناس عرفوا بشكل دقيق أوضاع المسلمين أن صلاح الدين لم يكن متوقفاً قدوم جيشنا، وأنه ما كان بإمكانه إيجاد أي انسان يفكر بأخذ موقف الدفاع في القدس، أو يتجرأ على البقاء فيها وتحمل الحصار هناك: ذلك أن المسلمين كانوا مرعوبين تجاه حادثة رجال جماعة عكا، الذين لم يستطع صلاح الدين تقديم العون لهم، ولهذا عانوا إما من جعلهم طعمة للسيف، أو من القاتلهم في السجن، مع أنه كان بإمكانه شراء حريرتهم. وذهب ملك انكلترا الآن مع جيشه الى عسقلان، ولم يتوقف عن ترميم أسوارها، وذلك خلال الشتاء كله، مقابل جهد كبير ونفقات عالية، فضلاً عن هذا قام بإعادة بناء بلدة الدارون الصغيرة، وبتحصينها، ورمم غزة ومنحها الى الداوية، الذين كانت ملكيتها عائدة اليهم من قبل ولقد منحهم اياها للاحتفاظ بها،

وحدث خلاف بين دوق بيرغندي والفرنسيون الذين بقوا معه من جهة وبين الانكليز من جهة أخرى، لذلك تركوهم وذهبوا الى صور، وأمضوا الشتاء هناك مع المريكيز، وعندما اجتمع الجيشان في الربيع التالي في بيت نوبة للقيام بحصار القدس، تبدل الملك رتشارد وتغير الى انسان آخر، فقد قال إنه يتوجب عليه بكل الوسائل العودة الى بلاده ثانية، مدعياً أن أخاه جون يطمح بالمملكة ويتطلع للاستيلاء عليها، وقد جعل من نفسه سيداً لجزء من بلاده، وكان من جانب آخر محقاً في ريبته في ملك فرنسا، الذي افترق عنه وهو غاضب، ولقد كان يخشى أن يقوم الملك فيليب في أثناء غيابه بغزو دوقية نورماندي بالقوة، ولدى سماع المسلمين هذه الأخبار امتلأوا بالسرور، وتشجعوا وكأنهم استفاقوا من سبات عميق، بينما اضطربت أحوال عناصر شعبنا وحزنوا وفقدوا كل أمل في استرداد المدينة المقدسة، ولقد بكوا وانتحبوا بسبب أن خاتمة تضحياتهم قد بترت، ورأوا أن جهودهم قد بدأت لكن لم تنته، وأنها وصلت الى لا شيء، ولو أن ملك انكلترا، قام قبيل مغادرته بإخفاء نيته لبعض الوقت، لربما كان من الممكن لنا الحصول على شروط أفضل وسلام مشرف مع المسلمين، لكنه وهو الرجل العنيد، كان على الرغم من تسببه بحدوث ضرر عظيم للمسيحية كلها، متشوقاً ومتعجلاً للمغادرة، ولهذا وافق على الشروط التي عرضها عليه صلاح الدين للهدنة مهما كان نوعها، ولم يثر أي اعتراض، كما لم يسبب أية مصاعب، وهكذا قضت الشروط بارغام شعبنا على تخريب عسقلان، والدارون وغزة، وقد تركوا لنا أمر الاحتفاظ ببيافا، وبقية الساحل حتى عكا، وبهذا أظهر المسلمون بشكل مؤكد أنه عندما تكون أماكننا الحصينة قد دُمرت، لن نستطيع بعد ذلك الدفاع عن المنطقة السهلية، وحمايتها ضدهم، ولا سيما أيضاً بعد ذهاب جيشنا وعودته الى الوطن، وكان بالوقت نفسه مركيز مونتفرات قد قتل من قبل مسلمين كانوا تعمداء، وعملا لوقت طويل في خدمته في بيته، كما أن هنري كونت شامبين كان قد تزوج من

ايزابيلا، أرملة كونراد، وذلك بناء على اقتراح ملك انكلترا، وقد بقي في الأرض المقدسة، وعندما كان ملك انكلترا في طريقه عائداً الى وطنه اعتقل وبات سجيناً في ألمانيا، وقد احتفظ به الامبراطور حتى دفع فدية مقدارها مبلغ كبير من المال، وهكذا تمكن بعد صعوبة من الوصول الى انكلترا.

ومع أن الكونت هنري قد تزوج من الملكة وبات سيدياً لكل من عكا وصور، رفض أن يتوج ملكاً، لأنه كان مثل البقية متشوقاً للعودة الى الوطن، ثم إنه بعدما أقام في الأرض لعدة سنوات، وعمل جميع الاستعدادات للعودة الى الوطن، سقط من إحدى نوافذ بيته فوق حجارة الخندق العائد لمدينة عكا، فاندقت رقبتة ومات، وقام الآن عموري ملك قبرص، الذي هو أخ لغي لوزغان - وكان الآن متوفى - بالزواج من الملكة ايزابيلا، وهكذا تولى حكم وحكومة الأرض المقدسة خليفة للكونت السالف الذكر.

وكان المسلمون بعد مغادرة ملك انكلترا وبقيّة الحجاج، قادرون على الفور على اظهار مدى الرعب الذي أحاط بحال القلة المتبقية من المسيحيين مع بقاياهم في الأرض المقدسة وإيضاحه، لولا أن صلاح الدين قد مات، وبناء عليه انبعث الخلاف والتمزق فيما بينهم، الأمر الذي قاد الى خصام وحرب أهلية، مما كان له عظيم الفائدة بالنسبة للمسيحيين، وانتزع أخو صلاح الدين من أبناء أخيه جميع ممالكهم باستثناء مملكة حلب فقط، وأثار بعمله هذا جميع المسلمين ضده، ولم يستطع شعبنا القيام بأي عمل ضده، كما أنه لم يتجرأ على محاولة ذلك: ولقد اعتقدوا أنه من الخير لهم العيش والحفاظ على امتلاكهم لأراضيهم الى جانب المسلمين في جميع الأحوال، مع أنهم تلقوا اهانات كثيرة من قبلهم، وكان بعض رجال المسلمين قد أبدوا استعدادهم لتسليمتنا مدينة جبيل وحصنها مقابل رشوات تلقوها، وذلك بدون إعلام

السلطان، التي هي ملك له بحق الوراثة، وحدث مثل هذا مع مدينة بيروت وقلعتها، حيث تخلت عنها حاميتها المسلمة، فأعيدت الى المسيحية.

وأرسل الامبراطور الروماني هنري (السادس: ١١٩٠ - ١١٩٧) حشداً من الألمان الى الأرض المقدسة، وأمر رجاله بخرق الهدنة، وبناء عليه ألقوا الحصار على حصن يدعى تبين قرب صور، وكانت حامية القلعة على استعداد للاستسلام شرط الإبقاء على حياة أفرادها، لكن الألمان أجلوا استسلام المكان لليلة واحدة، معتقدين أنه لا القلعة ولا حاميتها يمكن لهم النجاة من بين أيديهم، لكن حدث في اليوم التالي أن تجمع حشد لا يحصى من المسلمين للقيام بالتفريغ عن القلعة، وهكذا تراجع الألمان في فوضى، وعندما اقتربوا من بيروت فر المسلمون الذين كانوا باقين فيها، برعب، وتركوا المدينة والقلعة لهم، لكن عندما سمعوا أن سيدهم وامبراطورهم هنري قد مات (في صقلية، وخلفه فردريك الثاني) لم يقوموا بأية أعمال أخرى وعادوا مسرعين الى وطنهم.

وفي ظل هذه الأوضاع تشجع بعض قومنا بحضورهم، فتولوا تحصين يافا ضد المسلمين، لكن تمكن المسلمون بعد ذلك في وقت قصير، وبدون الكثير من المتاعب من الاستيلاء على القلعة التي بنوها، وسووها بالأرض، وأسرو جميع الذين وجدوهم فيها، وبناء عليه أعيد تجديد الهدنة، الأمر الذي وافق عليه المسلمون برغبة، لأن جميع مملكة القدس تقريباً كانت في أيديهم، وكانوا ممزقين، ومتخاصمين بشكل حاد فيما بينهم، ولم يعد قومنا تواقين أبداً لخرق الهدنة في أية مناسبة مهما كان نوعها، لإنجاز حصار أي موقع حصين، أو لإعادة بناء أية قلعة مهدمة، وهكذا عندما جاء بعد وقت قصير بعض النبلاء من شامبين ومقاطعات فرنسا الأخرى، ووصلوا بحراً، رفض قومنا خرق الهدنة، وذهبوا إلى انطاكية لخدمة أميرها، الذي كان آنذاك في حالة حرب،

لكنهم وقعوا فيما بين طرابلس وأنطاكية في أسر المسلمين، الذين حملوهم الى حلب، ولقد قام قومنا بخرق الهدنة مرتين بعد مغادرة الألمان السالفي الذكر: مرة عندما جاء بعض النبلاء من فرنسا، وأعني بذلك سيمون دي مونتفورت— وهو من أصل نبيل، وكان رجلاً تقياً، وجندياً جيداً مع أخيه غي، وبعض الآخرين الذين كان منهم كونتسه فلاندرز، التي تبعت زوجها (بلدوين) الذي تم (سنة ١٢٠٤) تتويجه امبراطوراً على القسطنطينية، والمرة الثانية، إثر وفاة الملك عموري وزوجته، حيث جرى استدعاء جون، كونت بريين Brienne لتسلم عرش القدس، فعبر البحر، وتزوج من وارثة المملكة، ابنة الماركيز كونراد والمملكة ايزابيلا، لكنها أنجزا القليل، أو بالحري لم يفعلوا شيئاً مفيداً، لأنها لم يلقيا الحصار على أي مكان حصين، ولم يرموا أية قلعة مهدمة، وكل ما فعلاه اقتصر على الدخول الى الأراضي الاسلامية وإحراق عدد قليل من القرى والاستيلاء على بعض الأسلاب.

وإثر تتويج جون المتقدم الذكر، وتعميده ملكاً قام المسلمون بتحسين جبل الطور ضدنا، وذلك من أجل إهانة المسيحية وإلحاق الضرر بها، وأكثر من هذا بغية تضيق الخناق على مدينة عكا، وجدد رجال شعبنا هذنتهم مع المسلمين، وعاشوا في ظل الحزن والنحيب، مع كثير من المآسي والمظالم، وطلبوا العون من عليين يوماً إثر يوم، وانتظروا الغفران والمدد من الرب، ومن الكنيسة الرومانية المقدسة.

هنا انتهى تاريخ القدس